

طوق الحمامة في الإلفة والألاف لابن حزم الأندلسي:

1- من هو ابن حزم الأندلسي :

هو أبو محمد علي بن أحمد ويعرف بابن حزم، بقرطبة من بلاد الأندلس في شهر رمضان سنة 384 هجرية الموافق لسنة 994 ميلادية، نشأ في قرطبة بالأندلس، وكان من علمائها في الحديث والفقہ يستنبط أحكامه من الكتاب والسنة، وكان في أول أمره شافعيًا، ثم مال إلى مذهب أهل الظاهر وكان مشاركًا في علوم كثيرة، وكان له علم في كل فن حتى قيل إن مؤلفاته تشتمل على 400 مجلد في نحو ثمانين ألف ورقة لا يزال كثير منها باقيا وهاك أهمها:

1- كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل: هو عبارة عن تاريخ انتقادي للمذاهب البشرية. و فيه أبحاث فلسفية في أصل العالم على رأي الطبيعيين، و مذاهب النصارى المعروفة في أيامهم واليهود والصابئة و السامريين، ونظر في التوراة والانجيل، وتحريفهما و أفاض في ذلك. وفي الحوارين، وذكر فرق الإسلام ومذاهبها وأرائها، وبحث في القرآن وإعجازها، وفي القدر والتعديل، وفصول في الأنبياء من آدم وفي القيامة، واختص الخوارج والمعتزلة والمرجئة بالفصول الإضافية، وبحث في أشياء أخرى من قبيل فلسفة والطبيعات في ذلك العهد، طبع الكتاب بمصر سنة 19 في خمسة مجلدات .

2- جمهرة النسب في معرفه قبائل العرب أو جمهره الأنساب منه نسخة في دار الكتب المصرية بين كتب الشنقيطي.

3- إبطال القياس، والرأي، والاستحسان، والتقليد، والتعليل منه نسخة في غوطا.

4- الناسخ والمنسوخ طبع بمصر على هامش تفسير الجلالين.

5- الأحكام لأصول الأحكام في أصول الدين منه نسخة في دار الكتب المصرية في 446 صفحة

6- طوق الحمامة في الأدبي في ليدن.¹

¹- عن جورجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثالث.

2-نشأته :

نشأ في نعمة وجاه عريض فقد كان أحمد أبوه عالما عظيما وزيرا من وزراء من وزراء أبي عامر المنصور محمد ، وهكذا نشعه ابنه مثله إذا استوزره الخليفة عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله عندما بويع عليه بالخلافة سنة 414 هجرية ، ولما قتل الخليفة المذكور بعد أسابيع معدودة سجن ابن حزم مدة ثم وزر للخليفة المعتمد بالله هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر.

3-مصادر الكتاب: كتاب طوق الحمامة في الإلفة والألاف من روائع الأدب العربي يتميز بحرية الفكر وقوة شخصية صاحبه ، وهو من هذا الجانب انعكاس للحياة الثقافية في الأندلس من جميع الجوانب يحتوي هذا الكتاب عن حكايات عن النساء نقلت من المرويات الشفوية الأندلسية التي نسجت قصصا وحكايات حول المرأة ، وهذا الأمر لا يختلف فيه شعب عن آخر. و قد تعددت مصادر كتاب طوق الحمامة، ومنها نذكر :

-المبادئ التعليمية الأولى التي تلقاها ابن حزم على أيدي النسوة اللائمي علمه القرآن،والأشعار، والخط منذ نعومة أظافره .

-أخذ العلم على بعض المشايخ في عصره.

-الحديث وفقهه.

-الأخبار وسير من علوم التاريخ ، والعلوم العقلية، والمنطق الذي ألف فيه كتابا بعنوان التقريب لحد المنطق.

4-أقوال في كتاب طوق الحمامة :

-يقول الإمام الغزالي وقد وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان به.

-وقال ابن بشكوال كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، و أوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ، و موفور حظه من البلاغة ، والشعر، والمعرفة بالسير، والأخبار كتب بخط من تأليفه نحو 400 مجلد تشتمل على قريب من 80 ألف ورقة.

-وقال عنه المؤرخ ابن حيان الأندلسي كان أبو محمد حامل فنون من حديث ، وفقه، وجدل، ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من العلوم القديمة من المنطق والفلسفة. وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة ، وكان يحمل علمه هذا ، ويجادل عنه من خالفه فيه ، ولا يدع المثابرة عليه والمواظبة على التأليف والإكثار من التصنيف حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم ، وقرر بعير أن تحرك ب السؤال بحر علم لا يقدره الدلاء، ولا يقصر عنه الرشاء.

-وقال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي أهل أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، و أوسعهم معرفة في علم اللسان ، و وفور حظه من البلاغة والشعر، والخطابة ، والمعرفة بالسير ، والأخبار.

-وقال الحافظ ابن كثير ابن حزم الظاهري الإمام الحافظ العلامة اشتغل بالعلوم الشرعية النافعة، وبرز فيها وفاق أهل زمانه ، وصنف الكتب المشهورة ، وكان أديب طبيبا شاعرا فصيحاً له في الطب والمنطق كتب، وكان من بيت وزارة ورئاسة و وجاهة ومال.²

5-سبب تأليف الكتاب:

الكتاب عبارة عن رسالة أدبية ألفها ابن حزم الظاهري للإجابة عن سؤال لصديق له تصدى فيها دراسة النفس الإنسانية فيما تحب وتألف ، يقول ابن حزم ، إذن ، ردا على رسالة تلقاها من صديق " عصمنا الله وإياك من الحيرة، ولا حملنا ما لا طاقه لنا به ، وقيض لنا من جميل عونته دليلا هاديا إلى طاعته ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه، ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا ، وخور غانا نهائي بنيتنا و سوء اختيارن(...). وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني

²- ينظر مقدمة الكتاب الذي حققه طه عبد الرؤوف سعد

وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك، واستزدته فيك.(...)وكلفتني أعزك الله أن اصف لك رسالة في صفة الحب، ومعانيه، وأسبابه، وأعراضه وما يقع فيه، وله على سبيل الحقيقة، لا متزيدا ولا مفننا، لكن موردا لما يحضرنى على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعه في ما اذكره، فبدت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته فهذا من الفقر صفحة.³

7- منهج تأليف الكتاب:

-ابتدأ ابن حزم في تأليف الكتاب بحمد الله على عباده والثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم على عادة التأليف عند العرب.

-الاعتماد على ما شاهده وسمعه، وعلى ما حدث به الناس في زمانه. يقول ابن حزم " والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زمانى فاغفر لي الكناية عن الأسماء، فهي إما عورة لا تستحيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقا ودودا ورجلا جليلا. وبحسبي أن اسمي من لا ضرر في تسميته، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره إما لاشتهار لا يغنى عنه الطيب وترك التبيين، وأما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره، وقلة إنكار منه .

و سأورد في رسالتي هذه أشعارا قلتها في ما شاهدته فلا تنكر أنت ومن رآها علي إني سألك فيها مثلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فان إخواني يجشمونني القول فيما يعرف لهم على طرائقهم ومذاهبهم .وكفاني إني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه و ناسبه إلي.

والتزمت في كتاب هذا الوقوف عند حدك والاقصصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن

³- ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الحرم للتراث القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، .2002، ص14/13.

أنضى مطية سواي ، و لا أتخلى بجلي مستعار، والله المستغفر و المستعان لا رب غيره.⁴ " من هنا فقد امتاز هذا الكتاب بعرض أشبه ما يكون بالدراسات النفسية الحديثة القائمة على تتبع الشخصيات ودراسة نفسياتها من الخبرات القائمة على التجربة الذاتية والمعاناة الشخصية وانتقالا إلى ملاحظة الآخرين والإدلاء بأخبارهم على منهج أهل الحديث والرواة ، وذلك بالحرص على اتصال السند واعتماد الثقة في قبول هذه الأخبار"⁵

- الترغيب في الطاعة. و مصدر منهجه استقاه من الدين، ومن المسائل الفقهية المتعلقة بالحلال والحرام ولذلك جاء كتابه دعوة للتمسك بالأخلاق الحسنة في عصر امتاز بابتعاده عن القيم الأصيلة.

-التذكير بأدب الله و أدب رسوله.

-الترغيب في المذهب الظاهري.

8-السمات الفنية لكتابة ابن حزم:

-استخدام الأسلوب السهل .

-استخدام أسلوب الإطناب متى دعت الحاجة إلى ذلك.

-الواقعية.

-الأسلوب البلاغي.

-الاستفادة من التاريخ.

9-تقسيم الكتاب :

يقول ابن حزم في باب تقسيم هذا الكتاب وقسمت رسالة هذه على ثلاثين بابا، منها في أصول الحب عشرة، فأولها هذا الباب، ثم باب في علامات الحب، ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم

⁴- المرجع نفسه ، 14/15.

⁵--محمد ببعميش .islamonline.net.

، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف، ثم باب فيه ذكر من أحب بنظرة واحدة، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باب، و إن كان الحب عرضا و العرض لا يحتمل الأعراض، و صفة و الصفة. فهذا على مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف و على معنى قولنا وجودنا عرضا أقل من الحقيقة من عرض غيره، و أكثر و أحسن و أقيح في إدراكنا لها: علمنا أنها متباينة في الزيادة و النقصان من ذاتها المرئية و المعلومة، إذ لا تقع فيها الكمية و لا التجزيء لأنها لا تشغل مكانا و هي باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل، ثم باب طي السر، ثم باب الكشف و الإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب من أحب صفة لم يجب غيرها مما يخالفها، ثم باب القنوع، ثم باب الغدر، ثم باب الوفاء، ثم باب الضنى، ثم باب الموت.

و منها في الآفات الداخلة على الحب ستة و هي باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين، ثم باب السلو.. و من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر.....⁶

10-موضوع المرأة:

اهتم ابن حزم في هذه الرسالة بموضوع المرأة وله قبلها إسهامات ومؤلفات كثيرة في هذا الموضوع فقد سبق له أن ألف رسالة في أمهات الخلفاء. وله رسالة عنونها: "نقط العروس في تاريخ الخلفاء" وساعده في تأليف هذه الكتب خبرته في عالم المرأة التي اهتمت بها طوق الحمامة اهتماما خاصا فوقف عند أوصافها الجسدية والأخلاقية كاشفا موقفه وموقف المجتمع منها. "وقد كان قصده الأساسي هو

⁶-ينظر ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 16/17.

تبيين الحقائق ، وليس عرض التواريخ والأحداث للإثارة الأدبية والخيالية، وحتى إذا وجدنا بعض هذه المواضيع في كتاب فإن هذا لا يعني إمكانية الاستغناء عنها في البحث العلمي و خاصة النفسي منه"⁷.
لقد دعا ابن حزم -من خلال موضوع المرأة - إلى التحلي بالأخلاق ، ونهى عن الفساد ، والابتعاد عن المعصية ، وهو منهجه في كامل مؤلفاته ، والشيء المميز في هذا الكتاب ، هو أنه ركز على سلوكات الإنسان الذي تربطه بغيره علاقات الحب والمودة. " لهذا فطوق حمام لم يكن كتابه أخلاق من حيث القصد المبدئي في التأليف ، ولم تكن رواية أو سردا ولم يقف عند هذه الجوانب من حياة الإنسان وإنما هو كتاب نفسي بالدرجة الأولى يدرس مشكلة جد معقدة ومهمة من قضايا الإنسان النفسية والاجتماعية وكذا العقدية "⁸.

11-الشخصيات المرجعية في الرسالة :

توجد في الرسالة شخصيات دينية ، فقد ذكر الكثير منها ومثالها : عبد الرحمن بن معاوية الدعجاء ، والحكيم ابن هشام وعبد الرحمن ابن الحكم الذي اشتهر بشغفه بطروب أم عبد الله ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والطرف معلوم .و أيضا الحكم المنتصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله وغيرهم كثير.

كما توجد في الرسالة ذكر لشخصيات سياسية لكبار الرجال ، والحكام، ودعائم الدولة في عصره منهم: أبي السري عمار بن زياد صاحب مولى المؤيد ، وزياد بن أبي سفيان الذي ذكره في باب الوصل.

12-أهمية الرسالة:

تحتوي الرسالة على كم من هائل من المعارف التاريخية والسياسية والدينية والاقتصادية، فهي وثيقة هامة تكشف عن جانب من الحياة السياسية في الأندلس كالفتنة التي حدثت في قرطبة في عهد

⁷-محمد ببعيميش. islamonline.net.

⁸-الموقع نفسه

الطوائف، وهي تظهر أيضا جانبا اجتماعيا من الحياة الأندلسية فيما يتعلق بعاداتها وتقاليدها وفنون عيشها أثناء القرن الرابع والخامس الهجريين. بالإضافة إلى أن الرسالة تحوي أو تتطرق إلى مجموعة من الحرف والفنون التي تكشف عن مظهر اقتصادي كان ظاهرا في الأندلس، فيها أيضا حديثا عن العمران ، فقد ضمت الرسالة أسماء مدن ومساجد وأسواق ، فضلا عن أنها أي الرسالة تكشف عن جانب في غاية الأهمية وهي أنها نافذة على الحياة الفكرية والأدبية الأندلسية في عصر ابن حزم نفسه.